اجابني : « استرجاع ارضنا » .

وعندما اردفت : « وهل يمكنكم استرجاعها اذا كنتم لا تريدون اي شيء آخر ؟ »

اجاب : « — وهل يمكننا الحصول على اي شيء اخر اذا لم نحصل على ارضنا ؟ » وقد لمسنا معا امكانية الضياع في متاهات لعبة الاجابات هذه .

اذا لم يتح لحسن وامثاله العيش في فلسطين عندما تعود ثانية « فلسطين » ، فمن سيعيش فيها ؟ الجماهير طبعا . أما الثوار الحقيقيون فسيتابعون ثورتهم في مكان آخر ، كما لو كانوا ارستقراطيي الثورة . وترتفع عدة اصوات لتقول لي : « الجماهير ثورية » . هذا صحيح بالنسبة لتطلعاتها الى العدل والحرية ، لا بالنسبة لاتخاذ القرارات .

لا يتكلم احد عن السعادة في الثورة . اتخالون العمل الثوري كئيبا ؟ ليست كل الاعمال الثورية بالتأكيد سارة — ولكن هنالك نوعا من السعادة يرافقها ، حتى في تدمير البنية القديمة من قبل الثائر . طرحت السؤال عدة مرات على بعض الفدائيين « تبدو لي سعيدا فهل أنت تلهو ؟ » وكانت الاجابة دائما نفسها : « ولم لا ؟ لماذا تريد ألا نتعرف على اللذة خلال الحياة التي نعيشها ، حياة المقاتل الذي يهدم القيم البالية » ؟ واذا كان بناة الاسس الاخلاقية البرجوازية لا يعرفون الا نوعا من الحالة الكئيبة ، الحزينة ، المتشجنة ، فلربما كان للثورة ان تكون في احدى مراحلها ، نقيض تلك الكآبة .

اتذكر الآن سميرة وهي طبيبة فلسطينية مقيمة في الولايات المتحدة جاءت من تلقاء نفسها لمعالجة جرحى عمان . حسناء ترتدي سروالا . كان علينا الانتقال من جرش الى السلط لملاقاة طبيب ومسؤول سياسي هناك . اوصلنا سائق تاكسي ، وهو جندي ميليشيا في الوقت نفسه . وحين وصولنا في المساء ، كان الطبيب غائبا . نقلتنا سيارة الى قاعدته، فبلغناها في اثناء الليل . وما ان رآنا ذلك المسؤول حتى تمتم بضع كلمات ما لبثت سميرة ان ترجمتها : « يجب ارجاعها الى السلط ، من المستحيل ان تقضي الليل هنا ، فالمقاتلون لن يفهموا . ولن يفهم الشعب كيف يمكن لامرأة ان تقضي الليل في قاعدة » . وكانت الطريق والمنطقة محفوفة بالمخاطر . فطلب من فدائيين ارجاع السيارة الى السلط ومن ثم العودة ، وكل ذلك خلال الليل . اتعتقدون حقا ان الجماهير لن تفهم لماذا تقضي طبيبة الليل ، مرتدية تلك الثياب ، تحت لحاف في زاوية من الغرفة ، لو خوطبت بصراحة ؟ ان الجماهير الفلسطينية لن ترى حتما في ذلك اي فجور .

كنت لبضعة ايام خلت اسير مع سميرة عبر ازقة مخيم غزة — وتحادثنا مع ست او سبع نساء ما لبثن ان دعوننا لتناول الشاي . وعلى ارض الغرفة الوحيدة التي كانت البيت ، فرشن بضعة اغطية لنا ، ووضعن وسادات قربها . وشعرت فجأة بغرابة الموقف بالنسبة لعالم عربي تقليدي : عالم الف ليلة وليلة ! اذ كنت الرجل الوحيد وسط سبع او ثماني نساء يتحادثن في السياسة . وما ان افصحت عن شعوري حتى علا الضحك . الم يكن بمقدور تلك النساء ، او بمقدور ازواجهن ، تفهم قضاء سميرة الليل في القاعدة ؟ ربما كان اصعب عليهم أن يفهموا لماذا تم ارجاعها في الليل عبر منطقة محفوفة بالمخاطر حتى في وضح النهار . كان من السهل ادراج ملاحظة في جريدة « فتح » تقول ما فحواه : « نظرا للمخاطر التي قد تتعرض لها في المنطقة من جراء تصرفات عناصر الجيش الاردني ، فقد اضطرت رفيقتنا الطبيبة سميرة الى قضاء الليل في القاعدة كذا . . » وما الذي يحول دون القيام بحملة تفسيرية ؟

تملكني الغضب في احدى المناسبات . كان ذلك حينما قال لي غسان بصوت لا يقبل الجدل : « على جميع الفلسطينيين ان يعملوا للقضية الفلسطينية ، وخاصة المثقفين منهم ، عليهم ان يستعملوا كل ما اوتوا به من مواهب من اجل القضية الفلسطينية » .